

في الشعر الجزائري

بقلم البراقاس سعد الله

الغزل

انفيه . وقد يدفنا هذا الى التساؤل عما اذا كانت هذه الظاهرة هي السبب الذي جعل العصر التركي في الجزائر ينتج شعرا غزليا بينما يعقم العهد الفرنسي او يكاد عن انجاب هذا اللون من الشعر .

٣ - والثقافة في المجتمع الجزائري ذات حظ عاثر ، وهي الى جانب ذلك تتخذ شكلا انفصاليا يكاد يكون خطرا على المجتمع نفسه اذ اننا نستطيع ان نقول ان هناك ثقافتين تناصب كل منهما العدا . ثقافة فرنسية محضة وهي عادة لا يظفر بها الا شباب المدن الكبيرة ومن يريدون ان ياكلوا الخبز الى جانب الفرنسيين . ومن سياسة الاستعمار في هذه البلاد وضع العراويل المتنوعة في وجه هذا الشباب حتى لا يواصل دراسته الجامعية ويتصل بالثقافة في مجال اوسع . وبهذه الطريقة اصبحت ثقافة هذا الشباب مبتورة مشتتة ، والذين توصلوا الى متابعة دراستهم لا يخرجون عن حالتين ، اما انهم كانوا طموحين يهتمون بشره فكري كبير ، واما كانوا من ابناء بعض الركاثر التي يعتمد عليها الاستعمار في حكم الجزائر . وفي كلتا الحالتين نلاحظ ان نسبة هؤلاء قليلة جدا اذا وضعت بجانب الكثرة الاخرى التي تتعلم لتعيش لا لتشتغل .

اما النوع الثاني من الثقافة فهو الثقافة العربية المحضة وهي ايضا تتخذ طابعا متطرفا استطاع ان اقول عنه انه رد فعل للنوع الاول . والثقافة العربية في الجزائر يسودها الجمود ويسيرها التقليد وينتهي بها السير دائما الى منتصف الطريق اذ ان اهلها غالبا ما يقفون عند المرحلة الثانوية من تعليم لا يخرج عن المجال الديني والمفوي ويرتبط بهذين اشد الارتباط كالتاريخ الاسلامي وفروع اللغة العربية . والى جانب ذلك نلاحظ ان هؤلاء المثقفين او المتعلمين كثيرا ما يكونون قد تجاوزوا سسن التعليم بمراحل عندما يذهبون للدراسة . واذا كان ابناء الثقافة الاولى يتعلمون في الجزائر ولا ينتقلون لاستكمال الدراسة الا الى فرنسا فان ابناء الثقافة الثانية يتلقون المبادئ الاولى في المكاتب القرآنية وبعض المساجد ثم يسافرون الى الزيتونة بتونس او القرويين بمراكش او يذهبون الى معهد ابن باديس الذي انشيء اخيرا في الجزائر (١٩٤٧)

ومن الممكن ان نجد صنفا اخر من المثقفين الجزائريين قد استطاع ان يجمع بين الثقافتين ، ولكن هذا الصنف قليل ، وهو بالتالي لم يفرض انجاها ثقافيا وسطا على المجتمع . ونحن نلاحظ سلفا ان الجزائر المستقلة سيكون اول ما تواجهه من مشاكل اجتماعية هو التباعد الثقافي الذي خلقتة السياسة الاجنبية وساعدت عليه .

ونحسب ان هذا الجو الثقافي الجاف المتباعد لا يسمح ولا يمكن ان يسمح بالاشراق الذهني وانعاش العواطف التي تصال اداة الشعر وتوجهها توجيها ناعما غزليا كما تفعل الثقافات الحديثة .

٤ - وليس الحديث عن النفس او الشخصية في الجزائر باقل اهمية في موضوعنا من الثقافة والسياسة . فالتركيب السيكولوجي للفرد الجزائري يختلف كثيرا عن غيره ، فهو الى جانب الكبت الذي يعانيه من جراء معاملة

اشرت في بحثي السابق (**) عن الشعر الجزائري الى ان الشعراء لم يتناولوا الغزل فيما طرقوا من موضوعات ولم اشأ اذ ذلك ان اتحدث عن غرض معين في هذا الشعر لاني كنت اهدف الى التصميم فقط . وقد رايت اليوم ان اوضح هذه الظاهرة محاولا تعليها وتحديدتها في ضوء العوامل المختلفة التي نشأت واثرت بها .

١ - اول ما يلفت نظرنا هو العامل الاجتماعي ، وانا حين اتحدث عن هذا العامل لا يعني الحكم عليه بالرجعية او التقدم واما الذي يعنيني هو تدخله في توجيه الشعر وتحكمه في ظروف الشعراء ، والمجتمع الجزائري مجتمع محافظ متدين عميق الايمان بمقدساته الى حد العنف والقسوة احيانا ويظهر هذا العنف وهذه القسوة في معاملته افراده سواء في علاقاتهم بانفسهم او علاقاتهم بالآخرين وهو كذلك مرتبط الى تقاليده وعاداته ارتباطا عقائديا يكاد يكون اعمى ، ومن هنا كان من الصعب في هذا المجتمع اعتناق مبدأ جديد او فكرة زائرة . ولعل هذا يفسر لنا قلة الطفرات والشذوذ الفكري في الجزائر

وليس من شك في ان مجتمعا هذا طابعه وهذا سلطانه سوف يكيف نفوس افراده ويقيد حريتهم الى حد كبير ، وليس من شك في ان الشعراء اكثر هؤلاء الافراد احساسا بهذا الجو الحرج وتمثلا لمضمونه . فالنظر الى المرأة حرام او عيب والتحدث اليها او عنها عمل لا اخلاقي لا يعمد اليه الا السفلة والمنحطون . وحين تظهر الانوثة على الفتاة تصبح جزءا من ابيها ثم زوجها وهي لا تتزوج في العشرين او الثامنة عشرة بل في الخامسة او السادسة عشرة والفتى لا يمر بمرحلة الكبت والشسوق والحمران ولا يعرف مناجاة ولا سهر الليالي لانه غالبا ما يتزوج وهو ما يزال مراهقا .

٢ - وحين نتحدث عن هذا المجتمع من حيث العادات والتقاليد نجد انفسنا مضطربين الى الحديث عن عناصره المكونة له من سياسة وثقافة ونفس . . والحق ان هذه العناصر كثيرة الفروع والزوايا وليس غرضنا تتبع ما فيها من ارقام ومنحنيات ولكن حسبنا ان نعرف ان التكويسن السياسي في الجزائر يبرر هذا الاتجاه الاجتماعي الذي يكاد يكون رد فعل للتيار المضاد الذي تدفعه اليد الحاكمة ، فهي الى جانب محاولة القضاء على مفومات المجتمع من لفة ودين واخلاق وتراث تحاول اقامة حواجز في وجهه وتحويله الى وجهة عكسية . وهذا التصرف من اليد الحاكمة اثار حولها الشك والتمرد والنقد احيانا ووقف التيار الاجتماعي بحيث وجد العزاء في الاحتفاظ بما هو كائن ومؤرخ ولم يهتم بما سيكون مستقبلا . وهذه ناحية احب ان انه اليها من يهمهم الحكم على هذا المجتمع بالتأخر والتطور ، وهي في نظري ظاهرة خطيرة يجب الحذر منها عند تناولها بالتاريخ . ولست ازمع هنا ان هذا الاتجاه العكسي يسرر الواقع في المجتمع الجزائري كما اني في الوقت نفسه لا استطيع ان

الاسرة والمجتمع والسياسة يعاني ازمات اخرى نتيجة لفسوة الطبيعة من ناحية وفسوة الحياة من ناحية اخرى . ومن هنا كان الفرد الجزائري يعاني تمزقات وفراغات داخلية مخيفة اذ لم يجد الحرية في الاسرة المحافظة او السياسة الشاذة ، ولم يجد الرحمة في تلوج الجبال او لفحات الصحاري كما انه لم يجد رحمة ولا حرية في حياة مفعمة بالماسي والدموع نعاني من الفقر والجوع والمرض والالم .

ولست ارى قول الشاعر الجزائري (اللقاني) في الدفاع عن سلوكه والاعتذار عن الغزل :

الافدع التفرزل في غوان فتلك طريقة المستهترينا
فمن صوت البلاد لنا نداء يكاد المرء يسمعه اينسا

لست ارى في البيت الاول منه سوى (تبرير) لجأ اليه الشاعر دون شعور ، والتبرير مرض سيكولوجي معروف . فالشاعر يرى ان الغزل خروج عن فيود المجتمع لا عن طبيعة الشعر ، ما دام المستهترون مبنوذين في مجتمعه فيجب عليه وعلى زملائه ك شعراء ان يتعدوا عن الغزل لانسه سيحيلهم في نظر المجتمع الى مستهترين . كما اني لست ارى في البيت الثاني سوى (هروب) الشاعر من ذاته . هروبه من صرخاتها وشكوكها الى طرف اخر هو هنا الوطن او صوت البلاد كما عبر عنه ، والهروب شذوذ سيكولوجي ايضا . فالشاعر هنا قد هرب من نفسه الى المجتمع الذي يزعم انه اخذ عليه كل حياته بما فيه من آتات واحزان ونداءات .

واحب وانا اتحدث عن سيكولوجية الفرد الجزائري ان اشير الى ظاهرة اخرى وهي ما يسمى في علم النفس (بالتعويض) . ذلك ان الشعراء الجزائريين قد استعاضوا عن الغزل بالمرأة غزلا اخر ظنوه يحميهم من سلطة المجتمع وعبث السياسة . وهذا الاتجاه ظهر في انتاج بعض الشعراء الذين اتخذوا من حب الوطن او وصف الطبيعة او من حرج الموقف السياسي طريقا الى التنفيس عن ذاتهم وعمما يهدمها من الام .

وسأعرض هنا نموذجين لشاعرين يختلفان في الزمن اختلافا ظاهرا بالرغم من انهما متعاصران . يقول الشاعر مفدى زكريا (١٩٢٦) .-

الحب ارفنى والبعد اضناني والبين ضاعف الامى واشجاني

فماذا نلاحظ ؟ ... ان في البيت ارفا وباسا والما واحزاناً للفراق ... وسنمر مقدمة القصيدة كلها على هذا النسق ؟ ونقطع نحن بان هذا الشعر لا يخرج عن الغزل والتباريح ، ونستلذ الاوصاف البارة والصور الجميلة ، ولكن الشاعر لا يلبث ان يصدم عواطفنا اذ يصل الى هدفه فيقول :-

رفعا بلادي فانت الكون اجمعه لولاك كنت بلادي هالكا فاني

ومثل هذا يقال في قصيدة الشاعر احمد الباني - بلادي هو اي - (١٩٥٢) التي يبدؤها بهذا المطلع الولهان :

كيف اسلوك منية الوجدان او اجافيك والهوى بنهاني

يم يقول في حرارة وشوق :-

كيف والحب في الفؤاد مكن انعداك نحو حب ناني

يم يكلم قلبه بهذا البيت العذرى :-

عش كما شئت با فؤادي بحب قدسي مطهر روحاني

ونحن القراء نمضي في قراءة هذا الشعر فتطربنا الموسيقى وتنشينا العطور والاردان واللمسات ، وتلذنا هذه العذابات والتأوهات والتهاك امام الحب الجارف ، ولكن عواطفنا تفيق على الغرض الذي يهدف اليه الشاعر - وهو الحنين الى الوطن - وتتأمل عيوننا العنوان فتدرك ان ذلك الحب وملك الصباية لم يكونا سوى عويض عما فعده الشاعر او عما يحسه

من قصور في الحب .

وقد يقال ان الشعراء هنا لم يزيدوا على ان مهدوا لفرصهم بالفرزل كما يفعل الشعراء والدمما وهذا صحيح الى حد كبير ولكني ارجح ان هذا التقليد لم يكن مقصودا لهم او على الاقل لا يتنافى مع طريقة التعويض لان الشعراء كانوا يعبرون عن لا شعورية طافية ويؤيد هذا ما تعرضت اليه من وصف الحالة السياسية والاجتماعية والثقافية في بلادهم .

ويمكن ان يجد القاري نماذج اخرى لهذا التعويض في (ليلي المطلقة) للحفناوي هالي و (يا هزاري) لمحمد العيد وفي كثير من شعر السائحي وبوشوشي وسحنون وغيرهم .

والشعراء كفراد في ذلك المجتمع وجدوا انفسهم امام الامر الواقع فتزوجوا كما يتزوج الناس، وغضوا ابصارهم عن المرأة والحديث عنها كما يفعل بقية الناس وانبعوا نقاليدهم وعادته - ظاهرا على الاقل - في كثير من الاحيان . ولم ينزع واحد منهم الى تحطيم عادة من العادات او الى تغيير مفهوم اجتماعي او اخلافي كما فعل الشابي مثلا حين اكثر في شعره من الغزل الجسدي وغير الجسدي في مثل قوله :

كل شيء موفع فيك حتى لفته الجيد واهتزاز النهود

في وقت كان الذوق العربي في تونس لا يستسيغ هذه اللهجة .

واحسب ان هذا المنهج الوريثي في الشعر الجزائري يؤيد ما ذهبت اليه فيما كتبت عنه من انه كان صدى للحوادث ولم يكن صوتا حقيقيا ينبع من ذات الشاعر ، وان الشعراء كانوا ذبولا ولم يكونوا روادا يشقون الطريق امام اية مجموعة في الشعب .

وقد ذكرت هناك ان الشعراء او اكثرهم كانوا مصلحين . والاصلاح في الجزائر (سيما في فترة ٢٠ - ١٩٢٥) كان يعني في الفرد مخبرا ومظهرا . اما المخبر فهو سلوك هذا الفرد المصلح واحساسه بالسورع وبرفابة الضمير وتمكنه من ثقافة دينية فرائية بالدرجة الاولى وسلفية عنيقة في الوقت نفسه . اما المظهر فهو ان العامة لا تثق الا في الرجل المتعمم والمتجلبب الذي يرتاد المساجد ويتعد عن الشبهات . فاذا اصفنا الى ذلك التدريس الذي لم يكن يعني تدريس الاقتصاد والرياضيات وما اليها وانما كان يعني اصول الدين وفروع اللغة العربية . . . واذا اصفنا ايضا ان المدرس كان في نفس الوقت واعظا واماما وقاضيا وغير ذلك من الوظائف الدينية . . . اذا اصفنا كل ذلك عرفنا لماذا اصبح الشعراء

دار الآداب تقدم :

قضايا جديدة في أدبنا الحديث

بقلم الناقد المصري الكبير

الدكتور محمد مندور

دراسات نقدية معمقة عن الانتاج العربي الحديث

وعن مشاكل النقد والادب

صدر حديثا

اروع الروايات التاريخية روايات الليالي

ما من شك في ان رجال القلم في لبنان ، وفي الاقطار العربية ، يعرفون منزلة (الليالي) من التاريخ العربي ، وعنايتها بنشر هذا التاريخ بالاسلوب الروائي الجذاب الساحر الذي ذهب له في البلاد ذكر .

ان روايات (الليالي) التي تشتمل على تاريخ دول العرب في هذا الشرق قبل الاسلام وبعده ، وعلى ما جرى فيها من سياسة وبطولة وفتح وغرام ... ان هذه الروايات تحف رائعة خالدة في عالم الادب والقصة وقد شهدت لها الاقلام الراقية في طول البلاد وعرضها انها بعيدة الاثر في التاريخ والبيان والانشاء السهل ، وقالوا عنها انها اعظم واجمل واشهى ما كتبه اقسام الروائيين والمؤرخين ، ان الاستاذ الكبير اميل جوشي الاشقر وهو صاحب مدرسة القصة الحديثة ، واضع هذه الروايات هو من كبار المؤرخين والادباء والروائيين وقد كانت ثمار قلمه هذه المجموعات الكبيرة التي التزمت نشرها .

دار الاندلس

للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت

وقد ظهر منها حتى الان الروايتان التاليتان

١ - الحارث الاكبر الفساني

٢ - النعمان الثالث ملك المراب

وستصدر الحلقات التالية تباعا ، وسيروى

العرب في كل مكان ان الخدمة التي اسداها

المؤلف الى كل عربي هي اجل خدمة يسديها اديب

دعاة اصلاح من ناحية ولماذا بعد شعرهم عن الفنون الشعرية التي ربما اصطدمت بالنوق العام كالفول مثلا .. وكيف ننتظر من شاعر ذلك ظاهره وهذا باطنه ان يتماجن ويعبث ويتغزل في سعاد او نهاد ؟

ه - على ان هناك سببا اخر ربما كان له نصيب كبير في فقدان الغزل او ضلته في الشعر الجزائري ويعنى به الجفاف النفسي والاجتماعي الذي يسود الجزائر ، فالترف والمرح والفراغ وغيرها من الالفاظ الناعمة لا يعرفها الجزائريون - طبقة الشعراء - الا في الكتب او عن طريق السماع . وهي جميعا عناصر مكونة وباعثة على الغزل . صحيح ان لدى الجزائريين فراغا من جراء البطالة ولكن هذا الفراغ اشد على النفس من الاشغال الشاقة المؤبدة في سجن بربروس ... وصحيح انك تطالع احيانا ابتساما على وجه الجزائري ولكنها في الحقيقة ابتساما المرارة التي خلفتها السنون العابسة .. وصحيح ايضا انك تجد لدى الجزائريين بعض منتجات الحضارة الحديثة ويفريك هذا الافتناء فتحكم على اصحابها بالتلف ولكن هذا التلف الحضاري القسري يفقد لذته وانفعاله في احساس الجزائريين لانه ترف دخيل مفروض .. وقد لمست بنفسني هذا الاحساس في أكثر من اسرة فوجدتها جميعا تعبر عن خيبة التقليد اكثر مما تعبر عن نشوء الخلق .

٦ - ومن العناصر التي تساعد على الغزل روعة الطبيعة وجمال الوجود .. والحق ان الجزائر فد توفر لها الكثير من هذه الروعة وهذا الجمال في غاباتها وجبالها ، في سهولها ومنخفضاتها ، في وديانها وسواقيها في ثلوجها وهجيرها ، في صحاريها وشواطئها ... لقد توفر لها كل ذلك ولكن الذي فقدته الجزائر او فقدته شعراؤها حتى الان هو (الاحساس) بعمق هذه الطبيعة وروعة هذا الفن .

وبديهي ان الشعراء قد ادخلوا الطبيعة في شعرهم كغرض من الاغراض ولكن بأية اداة وبأي احساس ؟ انها اداة تقليدية عاجزة عن التعبير بالابحار واحساس منغل تنكس في الصنعة والنشازات .. ولست الان في حاجة الى الاستدلال على هذا الانجاه .

وفيل ان اختتم هذه الكلمة احب ان اجيب على سؤال ربما خامر اذهان الكثير وهو - هل خلا الشعر الجزائري من الغزل ؟ والواقع انني بصدد الاجابة على هذا السؤال سأضطر الى الحديث عن الشعر بالفرنسية ايضا .. والذي ثبت لي بعد استقصاء هو ان الشعراء بالفرنسية كانوا اجراً من اخوانهم ذوي اللسان العربي ، فقد حدثني الدكتور محمد يعلى ان له شعرا غزليا وانه قرا لآخوانه شعرا من هذا النوع وهو وهم يكتبون بالفرنسية . ولعل هذا الفارق يفسر لنا ما ذكرناه من ان التسديس والاصلاح كانا حائلين دون انطلاق الشعراء في افاق الحياة الواسعة .

اما الشعر بالعربية فأكبر ظني ان اصحابه قد تناولوا فيه الغزل ايضا ولكن في حدود ضيقة وباحتشام كبير . ودون ان يجروا على نشره في الصحف او اذاعته على الاسماع . وليس من شك عندي في ان بعض الشعراء ممن اشتهروا بتناول الطبيعة والسبجات الفكرية في شعرهم امثال السانحي وبوشوشى والياتني قد - تناولوا الغزل في حدود اوسع قليلا ولكن انتاجهم برغم ذلك ظل وراء الستار حيث حال دون ظهوره ظلام التقاليد (٤)

أبو القاسم سعد الله

(٤) ارجو ان يعرف القارئ ان ظروف الجزائر الراهنة لم تمكني من احكام نهائية فيما كتبت ، كذلك عليه ان يلاحظ ان ما قلته عن المجتمع والمرأة كان قبل الثورة .